الفصل الرابع

القضاء على الخوارج

القضاء على الخوارج

اختلاف الخوراج

وقع الاختلاف بين الأزارقة – أصحاب قطري بن الفجاءة – سنة ٧٧ للهجرة، فخالفه بعضهم واعتزله عبد ربه الكبير وأقام بعضهم على بيعة قطري.

وسبب ذلك أن المهلب بعد أن أخذ الحجاج منه عتاب بن ورقاء لقتال شبيب أقام بسابور، يقاتل قطريا وأصحابه نحوًا من سنة، ثم أنه زاحفهم يوم البستان، فقاتلهم قتالاً شديداً. وكان كرمان في أيدي الخوارج وفارس في يد المهلب. فبعدت على الخوارج ديارهم، وانقطعت عنهم المواد من فارس فخرجوا حتى أتوا، مدينة كرمان، فقاتلهم المهلب بها أكثر من سنة، وملك عليهم فارس جميعها، فأخذها الحجاج منه وبعث إليها عماله. فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فكتب إلى الحجاج يأمره بأن يترك للمهلب خراج فارس، وجملة كور أخرى ليستعين به على قتال الخوارج فتركها، فبعث المهلب عليها عماله، فكان له ذلك قوة.

وبعث الحجاج إلى المهلب البراء بن قبيصة لينهضه إلى قتال الخوارج، فأخرج المهلب بنيه، كل واحد منهم في كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم، ووقف البراء على تل قريب منهم ليشاهد القتال. فاقتتل الفريقان أشد قتال رآه الناس، من الصبح إلى منتصف النهار ثم انصرفوا. فجاء البراء إلى المهلب فقال له: لا والله، ما رأيت فرسانًا كبنيك قط، ولا كفرسانك من العرب فرسانًا، ولا رأيت قطًا أصبر وأبأس من القوم الذين يقاتلونك فأنت والله معذور...

ثم أن المهلب خرج بالناس وبابنائه إلى قتال الخوارج عند العصر فقالتوهم كقتالهم في أول النهار وانصرفوا عند المساء.

فقال المهلب للبراء: كيف رأيت؟

قال: رأيت قومًا والله ما يعنيك عليهم إلا الله.

فرجعه المهلب إلى الحجاج، وكتب إليه أن يسأله عما شاهد، فأخبره بما رأى وقال له ما قاله للمهلب، ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهرًا لا ينال منهم كبير شيئ إلى أن قتل عامل لقطري على ناحية من كرمان يقال

لـه المقعطـر الضبـي رجـلاً مـن الخـوارج كان ذا بـأس وكان كريمًـا عليهـم، فجـاؤا إلى قطـري يسـألونه أن يسـلم إليهـم الضبـي ليقتلـوه فـأبي، فأنكـروا عليـه ذلـك. وكان رجـل مـن الأزارقـة حـداد يسـمى ابـزي يعمـل لهـم نصـالاً مسـمومة فيرمـون بهـا أصحـاب المهلـب، فشـكوا إليـه ذلـك، فقـال لهـم: سـأكفيكموه إن شـاء اللـه، ثـم وجـه رجـلاً مـن أصحابـه إلى ابـزي بألـف درهـم ومعـه كتـاب نصـه بعـد الديباجـة: أمـا بعـد فـإن نصالـك قـد وصلـت إلي، وقـد وجهـت إليـك بألـف درهـم فاقبضهـا. وقـال للرجـل: الـق هـذا الكتـاب والدراهـم في عسـكر قطـري، واحـذر عـلى نفسـك. فوقـع الكتـاب والدراهـم إلى قطـري، فدعـا بابـزي فقـال:

- ما هذا الكتاب؟

قال: لا أدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: وما اعلم علمها. فأمر به فقتل.

فجاء عبد ربه الصغير فقال: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟

فقال له: ما حال هذه الدراهم؟

قال: يجوز أن يكون أمرها كذبًا، ويجوز أن يكون أمرها حقًا.

فقـال لـه قطـري: قتـل رجـل في صـلاح النـاس غـير منكـر، وللإمـام أن يحكـم بمـا يـراه صلاحـًا، وليـس للرعيـة أن تعـترض عليـه.

فتنكر له عبد ربه في جماعة ولكنهم لما يفارقوه.

فلـما بلـغ ذلـك المهلـب درس إلى قطـري رجـلاً نصرانيًـا وقـال لـه: إذا رأيتـه فاسـجد لـه، فـإذا نهـاك فقـل إنمـا سـجدت لـك.

ففعل النصراني ذلك. فقال قطري: أنا السجود لله.

فقال: ما سجدت إلا لك.

فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله.

فقـال قطـري: أن النصـارى قـد عبـدوا عيـسى بـن مريـم فـاضرب ذلـك عيـسى شـيئًا. فقـام رجـل مـن الخـوارج إلى النـصراني فقتلـه، فأنكـر قطـري عليـه ذلـك وقـال: أقتلـت ذميًـا؟ فـكان ذلـك مـما قـوى الاختـلاف بـين الخـوارج.

وبلـغ المهلـب فوجـه إليـه رجـلاً يسـألهم عـن رجلـين خرجـا مهاجريـن إليهـم، فـمات أحدهـما في الطريـق، ووصـل إليهـم الآخـر، فامتحنـوه في عقيدتهـم فلـم يؤمـن بهـا. مـا قولهـم فيهـا؟

فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة وأما الآخر فكافر.

وقال آخرون: بل هما كافران.

فاشـتد الخـلاف بينهـم فثـاروا عـلى قطـري وخلعـوه، وولـوا عليهـم عبـد ربـه الكبـير، وبقـي مـع قطـري عصابـة قليلـة منهـم، ووقـع القتـال بينهـم، واعلـم المهلـب الحجـاج بمـا كان مـن اختلافهـم واقتتالهـم، فأمـره الحجـاج أن يناهضهـم وهـم عـلى اختلافهـم، فـأبى المهلـب وكتـب إلى الحجـاج: "أن الـرأي أن يتركهـم يقتـل بعضهـم بعضًـا فـإن في ذلـك إمـا هلاكهـم وإمـا إضعافهـم، وليـس مـن الـرأي أن يناهضهـم لئـلا يتفقـوا عليـه... وقـد أصـاب فإنهـم مكثـوا نحـو شـهر يقتـل بعضهـم بعضًـا. ورحـل عنهـم قطـري مـع مـن تبعـه، ثـم رجـع إليهـم فقـام فيهـم صالـح بـن مخـراق أحـد رؤسـائهم وقـال: يـا قـوم أنكـم أقررتـم عـين عدوكـم، وأطمعتموهـم فيكـم لمـا ظهـر مـن اختلافكـم. فعـودا إلى سـلامة القلـوب، واجتـماع الكلمـة. ثـم خـرج إلى أصحـاب المهلـب فنـادى:

يا أيها المحلون. هل لكم في الطراد فقد طال العهد به.

فتهايـج القـوم وأسرع بعضهـم إلى بعـض وأبـلى المغـيرة يومئـذ بـلاء حسـنًا، وصرعـه عبيـدة بـن هـلال.

فاستنقذ المغيرة فرسان من الأزد، وقال له رجل:

- كنا نعجب كيف تصرع، والآن نعجب كيف تنجو.

وبعـث الحجـاج إلى المهلـب رجلـين أحدهـما مـن كلـب والآخـر مـن سـليم يسـتحثانه عـلى القتـال، فتمثـل المهلـب يقـول أوس بـن حجـر:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترموا

وقـال ليزيـد ابنـه: حـرك الخـوارج فحركهم فتهايجـوا، وحمـل رجل منهم عـلى رجل من أصحـاب المهلـب فطعنه فشـك فخذه بالسرج. فقـال المهلب للسـلمي والكلبـي: كيف نقاتل

قومًا هـذا طعنهـم، وجـاء الرقـاد – وهـو مـن أعظـم فرسـان المهلـب – وبـه نيـف وعـشرون جراحـة وضـع عليهـا القطـن وحمـل يزيـد بـن المهلـب عـلى جماعـة منهـم فولـوا فحماهـم فارسـان، فحمـل رجـل يقـال لـه قيـس الخشـني عـلى أحـد الفارسـين فصرعـه. وحمـل عليـه الآخـر وتعانقـا فسـقطا جميعًـا عـلى الأرض، فصـاح قيـس: اقتلونا جميعًـا، فأسرع فرسـان من الفريقـين فحجـزوا بينهـما: فـإذا معانقـة امـرأة. فقـام قيـس مسـتحيًا. فقال لـه يزيد:

- أما أنت فبارزتها على أنها رجل.

فقال: أرأيت لو قتلت، أما كان يقال: قتلته امرأة؟

ثـم حاربهـم المهلـب بعـد ذلـك بالسـيرجان حتـى نفاهـم عنهـا إلى جيرفـت، وهنـاك اختلفـت كلمتهـم مـرة أخـرى. وكان سـبب ذلـك أن عبيـدة بـن هـلال كان يختلـف إلى امـرأة رجـل حـداد في بيتـه ويدخـل عليهـا بغـير إذن فشـكوه إلى قطـري، فقـال لهـم: أن عبيـدة مـن الديـن بحيـث علمتـم، ومـن الجهـاد بحيـث رأيتم. فقالـوا: أنـا لا نقـاره على الفاحشـة: فبعث إليـه قطـري فقـام فيهـم وقـال: بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم إن الذيـن جـاؤا بالإفـك عصبـة منكـم لا تحسـبوه شرًا لـك بـل هـو خـير لكـم.. الآيـات. فبكـوا واعتنقـوه وقالـوا: اسـتغفر لنـا.

فقـال لهـم عبـد ربـه الصغـير: لقـد خدعكـم. فرجعـوا إلى اعتقادهـم الأول، ولكنهـم لم يجـدوا سـبيلاً إلى إقامـة الحـد عليـه. وكان قطـري قـد اسـتعمل رجـلاً مـن الدهاقـين فظهـرت لـه أمـوال كثـيرة. فقـال لقطـري:

أن عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا العمل.

فقـال قطـري: إن اسـتعملته ولـه ضيـاع وتجـارات، فأوغـر ذلـك صدورهـم وقالـوا لـه: ألا تخـرج بنـا إلى عدونـا، فقـال. لا. ثـم خـرج. فقالـوا: كـذب وارتـد، فاتبعـوه يومًـا فأحسـن بالـشر منهـم فدخـل داراً مـع جماعـة مـن أصحابـه، فصاحـوا بـه. يـا دابـة اخـرج إلينـا. فخـرج إليهـم وقـال: " زجعتـم بعـدي كفـارًا. فقالـوا: أمـا أنـت فإنـك دابـة: قـال اللـه تعالى: "ومـا مـن دابـة في الأرض إلا عـلى اللـه رزقهـا" وأمـا نحـن فلسـنا كفـارًا. فأنت كافـر بتفكيرك إيانـا. فقـال لـه بعـض أصحابـه: قـل لهـم: إني اسـتفهمت ولم أخـبر. فقبلـوه منـه. ولمـا رأى منهـم هـذا التغير بايـع المقعطـري العبـدي. فكرهـوا ذلـك وسـألوه 'إعفاءهـم مـن مبايعـة المقعطـر، فـأبى، فاختلفـوا وتهايجـوا وحمـل فتـى مـن العـرب على صالـح بن مخـراق فقتله.

ثـم اقتتلـوا فيـما بينهـم قتـالاً شـديدًا. وارتحـل قطـري مـع أتباعـه إلى طبرسـتان.

وجلـس المهلـب للنـاس بعـد ارتحـال قطـري، فدخـل إليـه وجوههـم يهنئونـه، ووجـه المهلـب إلى الحجـاج يبـشره بالنـصر عـلى الخـوارج وتمـزق شـملهم، فقـدم إليـه رسـول المهلـب وأنشـده قصيـدة في مدحـه ومـدح المهلـب.

فلما انتهى من إنشاده أقبل عليه الحجاج وقال له:

- فكيف خلفت جماعة الناس؟

قال: خلفتهم بخير: قد أدركوا ما أملوا وآمنوا ما خافوا

قال: فكيف كان بنو المهلب فيكم؟

قال: كانوا حماة السرح نهارًا، فإذا اليلوا ففرسان البيات.

قال: فايهم كان أنجد؟

قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري ابن طرفها.

قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟

قال: كنا إذا أخذنا عفونا. وإذا أخذوا يئسنا منهم. وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم.

قال الحجاج: أن العاقبة للمتقين. كيف أفتكم قطري؟

قال: كدناه ببعض ما كادنا فصرنا إلى الذي نحب.

قال: فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟

قال: كان لنا منه شفقة الوالد وله منابر الولد.

قال: فكيف كان اغتباط الناس؟

قال: فشا فيهم الأمن وشملهم النفل.

قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟

قـال: لا يعلـم الغيـب إلا اللـه (أي مـا كنـت تسـألني عنـه كان مغيبًـا عنـي ولا يعلـم الغيـب إلا اللـه).

فقال الحجاج: هكذا والله تكون الرجال. كان المهلب اعلم بك حيث وجهك.

ثـم اسـتقدم الحجـاج المهلـب. فلـما قـدم عليـه أجلسـه إلى جانبـه وأظهـر إكرامـه وبـره وقـال: يـا أهـل العـراق ، أنتـم عبيـد المهلـب.

قطري في طبرستان

ولما توجه قطري إلى طبرستان، وجه إليه الحجاج سفيان بن الأبرد في جيش عظيم من أهل الشام، وأمر إسحاق بن محمد ابن الأشعث، رئيس جيش الكوفة بطبرستان، أن ينضم بجيشه إلى سفيان، فسار سفيان بجيش الشام وجيش الكوفة، في طلب قطري حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان، فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه، ووقع عن دابته في أسفل الشعب، وتدحرج حتى خر إلى أسفله. وكان معه خمس عشرة امرأة عربية، كن في الجمال والبزازة وحسن الهيأة كما شاء ربك، ما عدا عجوز فيهن. فساقهن بعض رؤساء الجند إلى سفيان. فلما دنا بهن منه، انتحت له العجوز بسيفها فضربت به عنقه فقطعت المغفر وقطعت جلدة من حلق درعه، وكاد سيفها يصيب جسمه، فاخترط سيفه وضربها به فخف رأسها فخرت ميتة، فضحك سفيان من العجوز، وقال لذلك الجندي: ماذا أردت من قتل هذه المرأة؟ فقال له:

- أصلح الله الأمير، أوما رأيت من ضربتها إياي! والله إن كادت لتقتلني!

ونظر علج من أهل البلد إلى قطري حيث تدحرج من الشعب فأتاه - وكان قد اشتد به العطش. فقال له: أعطني شيئاً حتى أسقيك فقال له ومحك والله ما ألا ما ترى من سلامي وأنا أعطيته إذا سقيني. فقال له أعطنيه فأبى. فارتفع العلج في الشعب وحدر عليه حجرًا عظيمًا من فوقه، فأصاب إحدى وركيه فأوهنها. وصاح العلج بالناس ليقتلوا قطريًا وهو لا يعرفه - وإنما ظن أنه من أشراف الناس لحسن هيئته وكمال سلاحه. فأقبل إليه نفر من أهل الكوفة، فقتلوه وأتى برأسه إسحاق بن محمد بن الأشعث، فبعث به إلى الحجاج.

ثم أن سفيان بن الأبرد أقبل منصرفًا إلى عسكر عبيدة بن هلال، وقد تحصنوا في قصر بقومس، فحاصرهم حتى جهدوا وأكلوا دوابهم. ثم أنهم خرجوا إليه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج. وكان ذلك سنة ٧٧.

وفي سنة ٧٨ ولي عبد الملك بن مروان الحجاج خراسان، وعبيد الله بن أبي بكرة على سجستان.

وفي سنة٨٠ ، غزا المهلب كش، وصالح جنده أهلها على فدية حملوها إليهم. وأغزى ابنه حبيبًا ربيخن من أعمال بخاري، وأحرق قرية للترك فسميت المحترقة.

وفي سنة ٨١ بلغ المهلب شقاق عبد الرحمن بن محمد الأشعث، وخروجه على الحجاج وعبد الملك. فكتب إليه ينصحه ويدعوه إلى الطاعة والدخول في الجماعة. وأرسل إلى الحجاج ينصحه بترك قتال أهل العراق، وهم جيش عبد الرحمن، حتى يسقطوا إلى أهليهم ويشتموا أولادهم، فتضعف قوتهم. فخالفه الحجاج وخرج إليهم فهزموه. فلما قفل راجعًا دعا بكتاب المهلب فقرأة، ثم قال:

- لله أبوه أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل.

موت المهلب

وفي سنة٨٢ توفي المغيرة،وأتى خبره أخاه يزيد، فأحب أن يبلغه أباه فأمر النساء، فصرخن، فقال المهلب: ما هذا؟ فقيل مات المغيرة. فاسترجع وجزع جزعًا شديدًا، ظهر على وجهه. وكتب إليه الحجاج بعزيه. وكان المهلب حينئذ (بكش) لحرب أهلها، فصالح أهلها على فدية، ومضى منصرفًا يريد مرور، فلما كان بزاغول، من مرو الروذ أصابه مرض، فدعا حبيبًا ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت، وقال:

- أترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا.

قال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم.

قال: فهكذا الجماعة. فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم: فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وترى المال، وتكثر العدد وأنها كم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلة. فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم، ولا تختلفوا، وتباروا تجتمع أموركم. وعليكم بالطاعة والجماعة. وليكن أفعالكم أفضل من قولكم، فإن أحب للرجل أن يكون لعمله أفضل على لسانه. واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه، فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقه: فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له. وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب، واصطنعوا معهم العرف: فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة:

فإنهـا أنفـع في الحـرب مـن الشـجاعة: وإذا كان اللقـاء نـزل القضـاء: فـإن أخـذ رجـل بالحـزم، فظهـر عـلى عـدوه قيـل: أتى الأمـر مـن وجهـه، ثـم ظفـر فحمـد، وإن لم يعـد يظفـر بعـد الأنـاة قيـل: مـا فـرط ولا ضيـع، ولكـن القضـاء غالـب. وعليكـم بقـراءة القرآن،وتعلـم السـنن وأدب الصالحـين وإياكـم والخفة،وكـثرة الـكلام في مجالسـكم.

ثـم اسـتخلف عليهـم يزيـد وجعـل حبيبًـا عـلى الجنـد حتـى يقـدم يزيـد فيكـون عليهـم، ومـات وكان أوصى إلى حبيـب فصـلى عليـه.

القول الفصل في عقيدة الخوارج وإغراقهم في الدين

أسباب انتصارات الخوارج

لقـد تلطفنـا في التبسـط قليـلاً بأخبـار الخـوارج، وزحوفهـم وحملاتهـم ومعاركهم، وكل غرضنـا مـن ذلـك أن نلقـي في روع القـارئ صـورة حيـة عـن هـؤلاء الأعـراب الأشـداء الذيـن حاربـوا الأمويـين فأثخنـوا فيهـم، وقارعـوا جنـودًا تفوقهـم عـددًا وعـددًا فاسـتأصلوهم ومزقوهـم شر ممـزق.

وهنـا يحـار القـارئ في معرفـة الأسـباب التـي مكنـت للخـوارج هـذه الانتصـارات الرائعـة، عـلى جيـوش تفوقهـم عـددًا وسـلاحًا كـما قدمنـا، ثـم لا توفـق هـذه الجيـوش العديـدة إلى تشـتيت شـملهم إلا بعـد حـروب دامـت أربعـين سـنة..

ومـع ذلـك فالدولـة لا تـزال في نشـاطها وقوتهـا، ورعاياهـا يناضلـون معهـا ضـد الخـوارج ويحاربونهـم حربًـا شـديدة مفجعـة، ثـم لا يوفقـون معهـم في كثـير ولا قليـل، ولعـل السـبب في ذلـك، أن الخـوارج كانـوا عربًـا بـكل مـا في الكلمـة مـن معنـى، كانـوا أبطـال حـروب وفرسـان معامـع، ينزلـون إلى الهيجـاء في شـجاعة الأسـد وبـأس الحديـد، ومضـاء السـيف، ومـروق السـهم،وانقضاض النـسر، والتهـاب النار،ويحرصـون عـلى المـوت في سـبيل عقيدتهـم حـرص أهـل الدنيـا عـلى الحياة،ويسـتعذبون مناياهـم كـما يسـتعذب الظـمآن المـاء الفـرات،ولا يهـدأ لهـم بـال إلا إذا ثـادوا إلى القتـال.

كانـوا عربًـا، والعـرب بطبيعتهـم شـجعان محاربـون، انظـر إلى قـول معقـل بـن قيـس الرياحـي للإمـام عـلي كـرم اللـه وجـه: "أصلحـك اللـه يـا أمـير المؤمنـين. أنـه كان ينبغـي أن يكـون مـع مـن يطلـب هـؤلاء القـوم مـكان كل رجـل منهـم عـشرة ليسـتأصلوهم: فإمـا أن يلقاهـم عددهـم فلعمـري ليصـبرن لهـم فإنهـم عـرب".

أكسـبتم هـذه الشـجاعة وهـذا البـأس الشـديد والصـبر عـلى شـدائد الحـروب طبيعـة بلادهـم التـي يعيشـون فيهـا في الأراضي الموحشـة بـين الوحـوش الـكاسرة. ومـا كان بينهـم في الجاهليـة مـن الإغـارات بعضهـم عـلى بعـض، وزاد في شـجاعتهم وبأسـهم وإقدامهـم عـلى النـزال ودربتهـم عـلى القتـال مـا بـاشروه مـن الحـروب في الإسـلام، ولا سـيمامع مـا وصلـوا إليـه مـن اسـتعمال آلات الوقايـة كالـدروع والمغافـر وغيرهـا.

ويدلـك عـلى مـا لهـم مـن تلـك الصفـات مـا قالـه الـبراء بـين قبيصـة فيهـم، لمـا أرسـله الحجـاج إلى المهلـب ليسـتحقه عـلى قتالهـم، فشـاهد من بأسـهم وشـدة مراسـهم للحـرب مـا راعـه، فقـال للمهلـب:

"ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك."

وقـال لـه أيضًـا وللحجـاج لمـا رجـع إليـه: رأيـت قومًـا لا يعـين عليهـم إلا اللـه، كـما يدلـك عـلى ذلـك أيضًـا قـول المهلـب، للكلبـي والسـلمي اللذيـن بعثهـما الحجـاج إليـه ليحرضـاه عـلى قتـال الخـوارج – وقـد طعـن عبيـدة بـن هـلال أمامهـما رجـلاً مـن أصحـاب المهلـب فشـك فخـذه بالـسرج.

- كيف تقاتل قومًا هذا طعنهم؟

وقـد كان رؤسـاء جيوشـهم وقـادة جنودهـم بالدرجـة العاليـة مـن البطولـة والجلـد والأيـد والصلابـة، مـع سـعة العلـم بتدبـير الحـروب والتمـرن عـلى أعمالهـا وتمـام الخـبرة بحيلهـا ومكايدهـا كتعبيـة الجنـود والخندقـة عليهـم وتموينهم بالأسـلحة والذخائـر وإثـارة الحماسـة فيهـم، وإذكاء العيـون عـلى الخصـوم واسـتطلاع أخبارهـم وإفشـاء الغلبـة عليهـم ومـا أشـبه ذلـك.

وقـد ذكـر ابـن خلـكان أن قطـري بـن الفجـاءة أحـد زعمائهم، خـرج في بعـض حروبه وهـو عـلى فـرس أعجـف وبيـده عمـود خشـب، فدعـا إلى المبـارزة فخـرج إليـه رجـل مـن الأعـداء، فحـسر قطـري عـن وجهـه، فلـما رآه الرجـل ولي هاربًـا، فقـال لـه قطـري: إلى أيـن؟

فقال الرجل: لا يستحي الإنسان أن يفر منك.

وكان قطري شاعرًا بليغًا، وفارسًا مقدامًا، انظر إلى شعره، فإنه يمثله كل التمثيل:

أقول لها وقد طارت شعاعًا   من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنـك لـو سـألت بقـاء يـوم   على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصـبرًا في مجـال المـوت صبرًا   فما نيل الخلود بمسـتطاع
سبيل الموت غاية كل حي   وداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهزم   وتسلمه المنون إلى انقطاع
ومـا للمـرء خـير مـن حياة   إذا ما عد من سـقط المتاع

وقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج أن دخل الكوفة وطاف فيها،وقتل كثيرًا ممن كانوا في مساجدها، وأدخل الفزع والهلع في قلوب أهلها حتى أغلقوا بيوتهم دونه.

وفي شبيب يقول الشاعر:

إن صاح يومًا حسبت الصخر منحدرًا والريح عاصفة الموج يلتطم

زعماء الخوارج

وكان كل زعماء الخوارج على هذا الغرار، بسالة وجرأة وتضحية، وكان الخوارج بهذه القوة البالغة، والبأس الشديد، والمعرفة التامة بأمور الحرب، يستغنون عن كثرة العدد ووفير العُدد، وقد رأينا كيف أن مرداسًا وأصحابه – وكانوا لا يزيدون على أربعين رجلاً – هزموا جيش بن زرعة وكان عدد مقاتلته ألفين. فقال في ذلك شاعرهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم باسك أربعونا

وانظر إلى ما قاله في أصحاب شبيب، بعض أصحاب حبيب بن عبد الرحمن الحكمي، أحد قواد الحجاج، وكان جيشه ثلاثة آلاف، وكان أصحاب شبيب ثلاثين رجلاً فقط "لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لأهلكونا"

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار ظاهرة أخرى لها خطورتها وأهميتها، وهي إيمان الخوارج بعقيدتهم، وبذلهم أنفسهم في سبيلها، ثقة منهم أن في ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وقد كان لهذا الاعتقاد دائرة العظيم في بسالتهم وإسراعهم إلى الموت،والموت يهرب منهم،وفيما روي عن الخوارج من الأقوال، وحكي عنهم من الأفعال، ما يدل على بينة على أنهم كانوا يؤمنون إيمانًا قويًا بأنهم يحاربون في سبيل الله، هذا إلى ما تزيوا به من لباس التقوى، وتزينوا به من حلي الصلاح والنسك الزهد في متاع الحياة الدنيا، وغير ذلك مما يدل على زهدهم في الحياة الدنيا وحبهم في الآخرة، ورغبتهم في الوصول إليها والعمل في سبيلها.

هذا حوثرة أول من خرج بعد قتل الإمام علي رضوان الله عليه، ودعاه أبوه إلى الطاعة والدخول في الجماعة فأبى، فأداره فصمم. فقال له: يا بني أجيئك

بابنـك فلعلـك تـراه فتحـن إليـه. فقـال: يـا أبـت أنـا واللـه إلى طعنـة نافـذة اتقلـب فيهـا عـلى كعـوب الرمـح لشـوقي منـي إلى ابنـي!.

وقـال أبـو بـلال مـرداس بـن أديـة أحـد رؤسـائهم الكبـار الأولـين في عبـد اللـه بـن وهـب الـراسي قائـد الخـوارج الذيـن خرجـوا عـلى الإمـام عـلي كـرم اللـه وجهـه:

ابعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة ... وقد قتلـوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي ... وهب لي التقى حتى لا ألاقي أولئكا

وكان مـرداس هـذا مجتهـدًا كثـير الصـواب في لفظـه، وكان مـن القشـف والتنسـك والعبـادة بمـكان عظيـم، حتـى انتحلتـه الشـيعة والمعتزلـة فضـلاً عـن الخـوارج. وفيـه يقـول عمـران بـن حطـان:

إذا ما عد من سقط المتاع ... يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائمًا أبكي لمرزئتي ... في منزل موحش من بعد إيناس
نكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

وكان عـروة بـن أديـة اخـو مـرداس، مثـل أخيـه مـرداس في الظهـور بالعبـادة والاجتهـاد والتنسـك، ولمـا قتلـه عبـد اللـه بـن زيـاد دعـاه مـولاه فقـال: صـف لي أمـوره. فقـال: أأطلـب أم أختـصر؟ قـال: بـل أختـصر.

قال: ما أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط.

وقال قطري بن الفجاءة:

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

تأمـل صياحهـم بحـضرة الإمـام عـلي كـرم اللـه وجهـه، وبحـضرة أصحابـه، وتناديهـم: لا تخاطبوهـم ولا تكلموهـم. وتهيئـوا للقـاء الـرب، الـرواح الـرواح إلى الجنـة.

وروي أن رجـلاً مـن الخـوارج طُعِـن فأنفـذه الرمـح فجعـل يسـعى إلى قاتلـه وهـو يقـول: وعجلـت إليـك رب لترضى.

واعتبر مبلغ زهدهم في متاع الحياة الدنيا، بصياحهم على من أخذ رطبة سقطت من نخلة، وقذف بها في فمه، فلم يلبث من انتهارهم إياه أن لفظها. وبما روي عن جماعة منهم أنهم ساوموا ذميًا على جني نخلة، فقال: هو لكم فقالوا: ما كنا لنأخذه إلا بثمن وغير ذلك - مما روى عنهم من هذا القبيل. وكانوا - على ما كانوا عليه من غلظ الأكباد على أعدائهم - في غاية الرقة الرقة والرحمة بعضهم على بعض، كما يرشدنا إليه وقوفهم على قبور أصحابهم بالنهروان، وبكاؤهم عليهم بكاء طويلاً وترحمهم عليهم واستغفارهم لهم.

وأخبار الخوارج مملوءة من أمثال هذه الآثار. ويجد المطلع على تاريخهم أنهم - مع ما قدمناه من تلك الأوصاف - كانوا على جانب عظيم من العلم والفهم،وبدرجة عالية من البلاغة والبيان: ذكروا أن عبد الملك بن مروان - وكان من أكثر الناس علمًا وأبرعهم أدبًا وأحسنهم دينًا - أتى برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء علمًا وفهمًا، ثم بحثه ما شاء أربًا ودهيا. فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصرًا محققًا. فزاده في الاستدعاء.

فقال له: لتغنك الأولى عن الثانية. وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل.

قال له: قل.

فجعل يبسط له من قول الخوارج. وزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة. فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته: لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم، ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق فقلت له: لله الآخرة والدنيا. وقد سلطني في الدنيا ومكن لنا فيها. وأراك لست تجيب بالقول، والله لأقتلنك'إن لم تطع.

فبينما عبد الملك في ذلك، إذ دخل عليه بابنه مروان وهو يبكي لأن مؤدبه ضربه. فشق ذلك عليه. فأقبل الخارجي عليه وقال: دعه يبك. فإنه أرحب لشدقه وأصح لدماغه وأذهب لصوته وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قوله عبد الملك. فقال له متعجبًا: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟

فقال: ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيئ..

فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله.

وقال يعتذر إليه: أولاً أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك.

ثـم قـال عبـد الملـك: مـن شـككني ووهمنـي حتـى مالـت بي عصمـة اللـه، فغير بعيـد أن يستهوي مـن بعـدي.

ويـروي أن عمـران بـن حطـان رأس القعـد مـن الصفريـة، وخطيبهـم وشـاعرهم نـزل عنـد روح بـن زنبـاع سـمير عبـد الملـك بـن مروان،وهـو لا يعرفـه. فـكان روح لا يسـمع شـعرًا نـادرًا ولا حديثًـا غريبًـا عنـد عبـد الملـك فيسـأل عنـه عمـران إلا عرفـه وزاد فيـه، فذكـر ذلـك لعبـد الملـك. فقـال لـه: خـبرني ببعـض أخبـاره فخـبره وأنشـده. فقـال: ضيفـك عمـران بـن حطـان، اذهـب فجئنـي بـه.

فرجع إليه فقال: أن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك.

فقال له: امض فإني بالأثر. فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره.

فقـال عبـد الملـك: أمـا إنـك سـترجع فـلا تجـده. فرجـع وقـد ارتحـل وخلـف فيهـا أبيـات منهـا:

يا روح كم من أخي مثوي نزلت به	قد ظن ظنك من لخم وغسان
حقي إذا خفته فارقت منزله	من بعدما قيل: عمران بن حطان
قد كنت جارك حولا ما تروعني	فيه روائع من أنس ومن جان
حتى أردت بي العظمي فأدركني	ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
واعذر أخاك ابن زنباع فإن له	في النائبات خطوبًا ذات ألوان

وكان نافـع بـن الأزرق ينتجـع عبـد اللـه بـن عبـاس، ويتباحـث معـه في مسـائل كثـيرة في التفسـير واللغـة ذكـر المـبرد جملـة منهـا في الكامـل وسـائق الإمـام الراغـب في سـفينته طائفـة عظيمـة منهـا.

الرأي في الخوارج

وليـس مـن شـك اليـوم في أن الخـوارج قـد شـوهوا محاسـن الديـن الإسـلامي تشـويهًا غريبًـا. فـإن هـذا الإغـراق في التأويـل والاجتهـاد أخرجهـم عـن روح الإسـلام

وجماله واعتداله. وهم في تعمقهم قد سلكوا طريقًا ما قال به محمد "ص" ولا دعا إليه القرآن، وأما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء،والصلاح الذي كانوا يزينون به في الظاهر كان ظاهر التأويل بادي الزخرفة، وقد طمعوا في الجنة وأرادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين غلواً أخرجهم منه، ومجاوزة الحد توقع في الضد. وقد تبسط عمر بن عبد العزيز في ذلك لما ناظر شوذب الخارجي وصاحب، إذ بعثهما إليه الخوارج فقال مخاطبًا لأنصارهم في شخصها:

"أنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها: فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى أن يخلو الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فمن قال ذلك حقن دمه وأحرز ماله ووجبت حرمته وأمن به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أسوة المسلمين وكان حسابه على الله. أفلستم تلقون من خلع الأوثان ورفض الأديان وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فتستحلون ماله ودمه ويُعلن عندكم؟ ومن ترك ذلك وأباه اليهود والنصاري وأهل الأديان فتحرمون دمه وماله ودمه ويُلعن عندكم؟ ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرمون دمه وماله؟

وقد رأينا في تاريخهم الأول كيف قتلوا عبد الله بن خباب وامرأته، وكيف كانوا يستحلون أموال المسلمين ويحترمون أموال الذميين، وكيف كانوا يستعرضون الموحدين ويقتلون رجالهم ونساءهم وأطفالهم، وقد روي أنهم كانوا يلقون الأطفال في القدور وهي تفور وكانوا يعتقدون أن ذلك من الدين وأنهم ينالون به الثواب من رب العالمين، ولقد بعث تناقض أمرهم هذا من عجب ذلك الذمي الذي لم يقبلوا منه جني نخلته إلا بثمنه، مع أنهم قتلوا عبد الله بن خباب فقال:

- ما أعجب هذاّ أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جني نخلة.

ولقد كان الناس حين يرونهم يعتريهم الفزع الأكبر ويرتاعون منهم أشد الارتياع. ويصيح بعضهم على بعض: الحرورية الحرورية ليهربوا منهم. وانظر ماذا كانوا ينقمون من المسلمين ومن ولاة أمورهم.

كانوا يزعمون أنهم محلون، أي مجبرون ما حرم الله كتحكيم الرجال في الدين وتعطيل الحدود وجباية الأموال من غير حلها، وإنفاقها في غير حقها وما مائل ذلك. وهو زعم باطل.

الخوارج ثوريون

والحق أن الخوارج قوم ثوريون، قصر فهمهم عن حكمة الحكومة، ولم يهتدوا إلى مذهب سياسي يعتمدون عليه في الخروج على الولاة. فلما عجزوا عن مثل ذلك الطريق السياسي زعموا ذلك الباطل ليكون مبررًا لخروجهم على الحكام من طريق الدين وهو أشد تأثيرًا في الناس وأسرعها في اجتذاب الأنصار لمن يدعو إليه، ألم تر أن أولهم وهو المخدج انتقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه، في قسمة بعض الغنائم، فضل بعض القوم على بعض؟ وإنما كان هذا التفضيل منه عليه الصلاة والسلام تأليفًا لقلوب الذين فُضلوا، مع علمه برسوخ الإسلام في قلوب الذين قل عطاؤهم عن الأولين، فلم يفقه ذلك الخارجي هذه الحكمة العالية، وأن التميز في هذه القسمة هو عين العدل لأنه الكفيل بالمصلحة العامة. لقد كان ذلك الخارجي يريد أن ينال نصيبًا من المال فلما لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ذهب به الحد إلى انتقاد القسمة من جهة العدل. ثم انظر إلى أولئك الذين أكرهوا عليًا كرم الله وجهه على التحكيم حتى إذا حكم لى كره منه عظيم، ثاروا عليه وقالوا: لا حكم إلا الله. وتأمل في إجابته رضي الله عنه على ذلك بأنها كلمة عادلة يراد بها جور، وأنهم يريدون بها إبطال الإمارة،ولابد من إمارة برة أو فاجرة.

ثم جاء الذين من بعدهم تحدوهم عقيدتهم الثورية الفوضوية وقالوا في أئمة المسلمين. أنهم يبيحون الدم الحرام والمال الحرام والفرج الحرام، ويجبون المال من غير حله وينفقونه في غير حقهّ والحق أقول: أنه من العسر جدًا على العقل أن يقبل مثل هذه التهمة الشنعاء في المسلمين أيام كان الإسلام متحليًا

بثوبـه القشـيب ومتجليًـا في نضرتـه الأولى. ولـو أن أناسًـا كان مـن حقهـم مؤاخـذة المسـلمين عـلى هـذه المزاعـم المخزيـة لكانـوا العلـماء والفقهـاء. والقضـاة. وقـد كان منهـم في تلـك الأيـام الجـم الغفـير ممـن لا يخشـون في الحـق لومـة لائـم، ولا يهابـون المـوت في تقويـم المعـوج أيًـا كان، وردع مـن يتعـدى حـدود اللـه كائنًـا مـن كان كالشـعبي وشريـح الـذي قـضى عـلى أمـير المؤمنـين عـلي بـن أبي طالـب كـرم اللـه وجهـه، في درع سـقطت منـه والتقطهـا يهـودي، ولم يقبـل منـه دعـواه مـع علمـه بصدقـه، ولم يقبـل شـهادة ابنـه الحسـن. ولمـا رأى اليهـودي ذلـك قـال: "أمـير المؤمنـين مـشى معـي إلى قاضيـه فقـضى عليـه فـرضي بـه. صدقـت، أنهـا لدرعـك سـقطت منـك يـوم كـذا وكـذا...، فالتقطتهـا وأنـا أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمـد رسـول اللـه" فوهـب لـه عـلى الـدرع وأعطـاه فرسًـا وفـرض لـه تسـعمائة. فلـم يـزل معـه حتـى قتـل يـوم صفـين. ومثـل هشـام بـن هبـيرة وأنـس بـن مالـك والحسـن البـصري ومحمـد بـن سـيرين وسـالم بـن عبـد اللـه بـن عمـر، وفقهـاء المدينـة السـبعة الذيـن عنهـم انتـشر العلـم في الدنيـا وإليهـم مرجـع الفتيـا في العـالم.

تعاليم الخوارج ومذاهبهم وتشددهم

تعاليم الخوارج

فـإذا انتهينـا مـن أمـر الخـوارج وغاراتهـم وزحوفهـم فنحـن أمامـن هـذه الفـرق التـي انبثقـت عـن تعاليمهـم، وهـو بحـث عرضنـا لـه في كتابنـا (عـلي بـن أبي طالـب) ونعـرض لـه اليـوم بشيئ مـن التفصيـل قليـل...

أثـارت نظريـات الخـوارج وتعاليمهـم عنايـة بعـض المسـتشرقين الأوروبيـين، فأسـماهم (فـان فلوتـن) بالجمهوريـين.

وهـم في الواقـع أقـرب في مبادئهـم إلى الجمهوريـة والشـورى منهـم إلى شـيئ آخـر، ومبادئهـم الديمقراطيـة متطرفـة، ولا يصـح أن يقـال أنهـم أصحـاب المذهـب الجمهـوري لأن هـذا المذهـب قـد اعتمـده الإسـلام قبلهـم، وأقـر الحكـم شـورى بـين النـاس، وكان أول مـا بـدأوا بحـث الخلافـة، لأن العـراك كان داميًا حولها، ,الدم يسـيل في سـبيلها، فقالـوا: أن الخلافة حـق لـكل عـربي حـر، ولا يصـح للخليفـة أن يتنـزل عنهـا إذا مـا اختـير لهـا، وإذا جـار الخليفـة اسـتحلوا عزلـه وقتلـه إذا قضـت الـضرورة بذلك. ثـم عمد الخـوارج إلى تعديل نظريتهـم الأولى في الخلافـة، فأطلقوهـا بـين المسـلمين جميعهـم لا فـرق عندهم بين العـربي وغير العـربي شرط أن يكـون مسـلمًا عـادلاً... ولعـل سـبب ذلـك انضـمام بعـض المسـلمين من غـير العـرب إليهم، فجعلـوا عندئـذ حـق الخلافـة شـائعًا بـين جميـع المسـلمين أحـراراً أو عبيـدًا... فخالفـوا بذلـك نظريـة الشيعة التـي تحـصر الخلافـة في آل محمـد صلـوات اللـه عليـه..

وانضـم إلى الخـوارج وغـذى صفوفهـم عـرب خلـص مـن أبنـاء الصحـراء، وبعـض القبائـل العربيـة ذات الخطـر والشـأن كقبيلـة بنـي تميـم مثـلاً، وأبطـال القادسـية، ورؤسـاء الجنـد وغيرهـم وانضـم إليهـم بعـض القـراء مـن جنـد عـلي خصوصًـا بعـد فشـل المسـلمين وخيبـة الأمـل في حقـن دمـاء المسـلمين، ومـن غريـب أمرهـم أنهـم كانـوا يغرقـون في التديـن إغراقًـا ليـس لـه مـا يـبرره، ويتأولـون الأحـكام الإسـلامية تأويـلاً لمـا يقـل بـه محمـد «ص» ، ولا دعـا إليـه القـرآن، وقـد أحمـس الخـوارج وأذكى نفوسـهم مـا رأوه مـن سـعي أولي الأمـر الملـح لمصالحهـم الخاصـة، وآذاهـم انهيـار الشـورى في السـلام، وقبـول سـكان المـدن الإسـلامية بالملـك العضـوض.

السياسة والدين

وتعاليـم الخـوارج منـذ ظهورهـم مزيـج مـن السياسـة والديـن، فشـعارهم (الحكـم للـه) شـيئ يمتـزج بالديـن والسياسـة معًـا، فـلا يصـح والحالـة هـذه أن يقـال أن دعوتهـم هـذه دينيـة محضـة أو سياسـية محضـة وظلـت دعوتهـم بسـيطة حتـى خلافـة عبـد الملـك بـن مـروان حيـث مزجـوا فيهـا كثـيرًا مـن التعاليـم الجديدة،وذهبـوا يتأولـون الأحـكام الدينيـة تأويـلاً فيـه كثـير مـن الإغـراق، والتعقيـد كـما قدمنـا، فقالـوا: إن العمـل بأوامـر الديـن مـن صـلاة وصيـام وصـدق وعـدل جـزء مـن الإيمـان، وليـس الإيمـان الاعتقـاد باللـه ورسـالة محمـد»ص» فحسـب، فمـن اعتقـد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمـدًا رسـول اللـه، ثـم لم يعمـل بمـا يفرضـه الديـن وارتكـب الكبائـر، فهـو كافـر، وكذلـك نـرى أن إغراقهـم في الديـن كان عـلى غـرار إغراقهـم في السياسـة، وأنهـم في ذلـك قـد شـوهوا روعـة الديـن الإسـلامي الـذي كان يـسرًا لا عـسرًا، سـهلاً هينـاً...

وقـد امتـازوا بشـدة تمسـكهم بالقـرآن واتبـاع أحكامـه، وغلـوا في ذلـك غلـوًا شـديدًا، حتـى لقـد تأولـوا آياتـه عـلى غـير حقيقتهـا، وعـدوا مرتكـب الكبيرة، بـل مرتكـب الصغيرة منافقًـا كافـرًا، وخرجـوا عـلى أئمتهـم للهفـوة الصغـيرة يرتكبهـا أحدهـم، وتشـدد كثـير منهـم في أمـر مخالفيهـم في الـرأي مـن المسـلمين، فعدوهـم كفـارًا، حتـى ليحـكي أن واصل بـن عطـا رأس المعتزلـة وقـع في أيديهـم، فادعـى أنـه مـشرك مسـتجير، إذ رأى أن هـذا ينجيـه أكـثر مـما تنجيـه دعـواه أنـه مسـلم مخالـف لهـم..

ولـو تكلفـوا الترويـج لنظرياتهـم دون إرهـاق مخالفيهـم، لتلطـف التاريـخ في شـأنهم، ولكنهـم أغرقـوا إغراقًـا هـو أقـرب إلى الإحـراج منـه إلى شـيئ آخـر، فقـد كانـوا لا يرحمـون المـرأة ولا الطفـل الرضيـع ولا الشـيخ الفـاني، وكانـوا يأتـون أفظـع المنكـرات وأكـبر الكبائـر، دون مـا شـفقة ولا رحمـة، ثـم يتحرمـون عـن تافـه الأشـياء وصغـير الأمـور.. ومثـل هـذا التناقـض في أعمالهـم كان كفيـلاً مـع الأيـام بإفنائهـم والقضـاء عليهـم، وهـو مـا أصبـح أمـرًا واقعًـا.

الخوارج وفرقهم

وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة كانت تخالف كل منها الأخرى في تعاليمها كلها أو بعضها، وأشهر فرقهم:

الأزارقة

وهم أصحاب نافع بن الأزرق المكني بأبي راشد، وكان من أكبر فقهائهم ولم تكن من الخوارج فرقة أكثر عددًا من جماعة الأزارقة ولا أشد شوكة، وقد كفر هو واصحابه على ابن أبي طالب وجميع المسلمين: وقال نافع: أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدًا من غيرهم إذا دعاهم للصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوامنهم. وهم في نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان. وقال عن بلادهم: أنها دار حرب. وحلل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم. وكان لا يجيز التقية في قول ولا في عمل، وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة ممن كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه، أو عن الهجرة إليهم، وأوجب امتحان من ينضمون إليهم فكان يدفع إليه واحدًا من أسرى مخالفيهم ويأمره بقتله فإن فعل صدقوه وإن أبى قالوا:

- هذا منافق ومشرك وقتلوه.

وهم يكفرون أيضًا مرتكب الكبير مستدلين بكفر إبليس الذي يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى. وزاد نافع على ذلك أن أسقط حد الرجم عن الزاني المحصن لأنه لم يرد عليه نص في القرآن، وأسقط الحد كذلك عمن قذف الرجل المحصن،ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير...

وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها.

البيهسية

وهم أصحاب أبي بيهس بن جابر، ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والولاية لأولياء الله. وكان يكفر الواقفية وهم الذين يقولون أننا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحرام أم حلال، لأنه يعتبر أن من ضمن الأشياء التي جاء بها

النبي والتي تجب معرفتها، المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها، ويقول أن هناك أشياء أخرى لا يجب على المسلم أن يعرفها إلى باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها. وكان يقول أن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل، أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم.

الأباضية

وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي، ويختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم؛ بل قالوا أنه يحل التزوج منهم، ويتوارث الخارجي وغيره. وهم إلى المسالمة إميل حتى قالوا: أنه لا يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال، فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل. أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم، وكانوا يرون إن بلاد مخالفيهم من لمسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائزين)، فإنه دار بغي. كما قالوا: أن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة. موحد لا مؤمن، فهو كافر كفر نعمة الله عليه، وأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى أحداثًا وإبداعًا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازًا، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب، بل أن الكافر مطالب بها أيضًا، وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم.

الصفرية

وهم أصحاب زياد بن الأصفر، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ماداموا مثقفين في الدين والاعتقاد. وقال أن التقية جائزة في القول دون العمل، ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتفكيرهم أو تخليدهم في النار؛ وفرق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حد عليها؛ فلم يكفر مرتكب الأولى، وإنما كفر مرتكب الثانية. هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج وأن النظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعًا في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان. فلا عجب

إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم. وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة البطولة الفذة، وشغلوا – كما رأينا- الحزب الأموي وغيره مدة قليلة من الزمن حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمنًا غاليًا من الأرواح والأموال.

رأي نيكلسون

ويرى الأستاذ نيكلسون «إن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم، وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود أفكارهم، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم.

«ويرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين».

وفيما يقول الأستاذ نيكلسون بعض الصواب وقد ذكر الطبري عن شبيب الخارجي وقد انتهى إلى إحدى المدن، فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها، فساروا حتى أتوا دار العامل: ونادوا: أجيبوا الأمير، فقالوا: عاملها، فساروا حتى أتوا دار العامل: ونادوا: أجيبوا الأمير، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيبًا، فاغتر العامل بذلك وخرج إليهم، فضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان في دار الإمارة من مال ولحقوا بشبيب، فلما انتهوا إليه قال: ما الذي اتيتموا به؟

قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابة في بدره.

فقال شبيب: أتيتمونا بفتنة للمسلمين. هلم الحربة يا غلام. فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدرها حتى وردن الصراة؛ ثم قال: أن بقى شيئ فاقذفه في الماء....

وفي هذا ما يدل على أنهم في الواقع كانوا أبعد الناس عن المال والعمل، وأنهم كانوا يروجون لمذهبهم، ويعملون لعقيدتهم.

كره العراقيين لسياسة الحجاج وشدته ونقمتهم عليه

توسع سلطة الحجاج

كانت سنة ٧٨ للهجرة -٦٩٧ شمسية - سنة خير وسلام على الإمبراطورية العربية، فقد وفق قواد الحجاج إلى القضاء على الخوارج في مختلف ساحات القتال، فاستتب السلام وفشا الأمن، وعاد الناس إلى متاجرهم وأعمالهم، وانصرف القواد والجند إلى الراحة بعد عناء الحرب وكر الزحوف.

ورأى عبد الملك بن مروان تقديرا لجهود عامله، وتعزيزا لشأنه، إن يضم إليه خراسان وسجستان وكان عامله على الأولى أمية بن عبد الله، لا يقدم خراجها إلى الخزانة العامة في دمشق إلا غرارا، بينما الحجاج على العكس من ذلك كان لا يتأخر أبدا عن تقيم خراج البلاد التي كانت تحت حكمه وسلطانه، ومن هذا التاريخ ٧٨ للهجرة، حتى موته، ظل الحجاج - أي مدة سبع عشرة سنة - حاكما مطلقا على الأمصار الشرقية، للإمبراطورية العربية، كان يحكم العراقيين، وفارس وكرمان، وسجستان وخراسان، وضمت إليه بعد ذلك عمان واليمن والبلاد العربية، ثم انصبت عليه ثروة ما وراء النهرين حتى حدود السند.

وفي هذه السنة عهد الحجاج إلى المهلب بولاية خراسان، وإلى عبيد الله ابن أبي بكره بولاية سجستان، فعهد المهلب إلى ابنه حبيب بالقيام مقامه، بأعباء هذه الولاية، ريثما يتمكن من إنهاء أعماله في العراق. وكان الحجاج في الوقت نفسه يطالبه بخراج الأهواز، وقدره مليون درهم، والظاهر أن المهلب كان من هؤلاء الأمراء الذين يتلطفون كثيرا في البذل، ويغرقون في العطاء، فلما طالبه الحجاج بالخراج المتأخر، صعب عليه دفعه، إذ لم يكن عنده شيء منه، فقام المغيرة ابنه بدفع النصف، وساعده مولى له ببعض الباقي وباع المهلب حلي امرأته فتمكن بذلك من دفع المبلغ المطلوب.

ثورة مطرف بن المغيرة

ومن الحق أن نختتم حديث الخوارج بما كان من مطرف بن المغيرة بن شعبة، وكان بنو المغيرة بن شعبة صلحاء شرفاء بأنفسهم مع شرف أبيهم ومنزلتهم من قومهم، فلما قدم الحجاج العراق ورآهم على أنهم رجال قومهم، استعمل

عـروة عـلى الكوفـة، ومطرفـا عـلى المدائـن وحمـزة عـلى همـذان، وكانـوا في أعمالهـم أحسـن النـاس سـيرة، وأشـدهم عـلى المريـب.

وكان مطـرف عـلى المدائـن عنـد خـروج شـبيب وقربـه منهـا، فكتـب إلى الحجـاج يسـتمده، فأمـده بسـبرة بـن عبـد الرحمـن بـن مخنـف وغـيره، وأقبـل شـبيب حتـى نـزل بهرسـير، وكان مطـرف بالمدينـة العتيقـة وهـي التـي فيهـا أيـوان كـسرى فقطـع مطـرف الجـسر، وبعـث إلى شـبيب يطلـب إليـه أن يرسـل بعـض أصحابـه لينظـر فيـما يدعـون.

فبعث إليه عدة منهم، فسألهم مطرف عما يدعون إليه.

فقالـوا: ندعـو إلى كتـاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم، وأنـه الـذي نقمنـا مـن قومنـا الاسـتئثار بالفـي وتعطيـل الحـدود والتسـلط بالجبريـة.

فقـال مطـرف: مـا دعوتـم إلا إلى الحـق، ومـا نقمتـم إلا جـورا ظاهـرا، فبايعـوني عـلى مـا أدعوكـم إليـه ليجتمـع أمـري وأمركـم.

فقالوا: أذكره فإن يكن حقا نجبك إليه.

قـال: أدعوكـم إلى أن نقاتـل هـؤلاء الظلمـة عـلى أحداثهـم، وندعوهـم إلى كتـاب اللـه وسـنة نبيـه، وأن يكـون هـذا الأمـر شـورى بـين المسـلمين يؤمـرون مـن يرتضـون عـلى مثـل هـذا الحـال الـذي تركهـم عليهـا عمـر بـن الخطـاب، فـإن العـرب إذا علمـت إنمـا يـراد بالشـورى الرضـا مـن قريـش، رضـوا، وكـثر تبعكـم وأعوانكـم.

فقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه.

وقامـوا مـن عنـده، وترددوا بينهـم أربعـة أيـام فلـم تجتمـع كلمتهـم، فسـاروا مـن عنـده، وأحـضر مطـرف نصحـاءه وثقاتـه فذكـر لهـم ظلـم الحجـاج وعبـد اللـه وأنـه مـا زال يؤثـر مخالفتهـم ومناهضتهـم، وأنـه يـرى ذلـك دينـا لـو وجـد عليـه أعوانـا، وذكـر لهـم مـا جـرى بينـه وبـين أصحـاب شـبيب وأنهـم لـو تابعـوه عـلى رأيـه، لخلـع عبـد الملـك والحجـاج ... واستشـارهم فيـما يفعـل.

فقالوا له: اخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد.

وقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه المغيرة بن شعبة:

- واللـه لا يخفـى عـلى الحجـاج مـا كان بينـك وبينهـم كلمـة واحـدة، وليـزاد

على كل كلمة عشرة أمثالها، ولو كنت بالسحاب لا لتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاء النجاء. فوافقه أصحابه على ذلك فسار إلى المدائن نحو الجبال.

ثم ذكر مطرف لأصحابه بالدسكرة ما عز عليه ودعاهم إليه، وكان رأيه خلع عبد الملك والحجاج، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه، فبايعه البعض على ذلك، ورجع عنه البعض، وكان ممن يرجع سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فجاء إلى الحجاج، وقاتل شبيبا مع أهل الشام، وسار مطرف نحو حلوان، ثم إلى همذان، وبها أخوة حمزة، فأرسل إليه يستمده بالمال والسلاح، فأرسل إليه أخوه سرا ما طلب، وسار مطرف حتى بلغ (قم وقاشان) وبعث عماله على تلك النواحي، وأتاه الناس، وكتب البراء بن قبيصة وهو عامل الحجاج على أصبهان إليه يعرفه حال مطرف ويستمده، فأمده بالرجال بعد الرجال على دواب البريد، وكتب الحجاج إلى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف، وأن يجتمع هو والبراء على محاربته، فسار عدي من الري فاجتمع هو والبراء، وحاربوا مطرفا فكسروه وقتل مطرف...

والواقع أن هذه هي المحاولة الثانية التي يحاول فيها بعض وجوه أهل العراق الثورة على الحجاج، وقد قصصنا ثورة الجارود، وإذا كان الجارود قد ثار على الحجاج، لما اعتزم هذا انقاص العطاء، فإن مطرفا ثار عليه لمذهبه السياسي، وبطشه وسوء سيرته، واجتماع مطرف إلى الخوارج، واستماعه إلى كلامهم، يدل على أنه كان يؤمن ببعض مبادئهم، أو أنه كان يحاول استمالتهم إلى تعضيده، لما رآه من فتكهم وبأسهم.

ابن الأشعث والحجاج

فإذا أشرفت سنة ٧٩ للهجرة، رأينا الحجاج يفكر في القيام بالغزوات في الشرق ومحاربة ملك كابول، روتبيل التركي الذي كان لا يدفع الجزية المفروضة عليه إلا غرارا، فأوغر ذلك صدر الحجاج عليه فبعث إلى عبيد الله بن أبي بكرة عامله على سجستان أن يناجزه وأن لا يرجع عنه حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه، ويقيد رجاله، فسار عبيد الله في أهل البصرة وأهل الكوفة، ودخل بلاد رتبيل، فأصاب من الغنائم ما شاء، وهدم حصونا، وغلب على أرض من أراضيهم،

وأصحـاب رتبيـل مـن الـترك يتركـون لهـم أرضـا بعـد أرض، حتـى أمعنـوا في بلادهـم، ودنـوا مـن مدينتهـم، وكانـوا منهـا عـلى ثمانيـة عـشر فرسـخا، فأخـذوا عـلى المسـلمين العقـاب والشـعاب، فارتـد الغـزاة منهـم وتراجعـوا بعـد أن حدثـت بينهـم موقعـة صغـيرة لم تكـن بـذات شـأن، ولا كبـير أمـر.

وأغضـب الحجـاج تراجـع جنـوده، وكتـب إلى عبـد الملـك بـن مـروان ينبئـه بالأمـر، ويطلـب منـه الإذن ليرسـل إلى رتبيـل جيشـا قويـا، مخافـة أن يدخـل في روعـه أن الإمبراطوريـة الإسـلامية تعجـز عنـه، أو لا تسـتطيع الوصـول إليـه، فيغـرق في سرفـه، ولا يبعـد أن يهـدد الإمبراطوريـة، وفي هـذا مـا فيـه مـن الخطـر الداهـم، والـشر العظيـم.

فـأذن لـه عبـد الملـك في ذلـك، فأخـذ الحجـاج في تجهيـز الجيـش، وأخـذ مـن أهل الكوفـة عشريـن ألفـا ومـن أهـل البـصرة مثـل ذلـك، وأعطـى النـاس عطياتهـم كاملـة غـير منقوصـة، وأنفـق فيهـم الأمـوال، وأنجدهـم بالخيـل والسـلاح الكامـل، ولمـا فـرغ مـن ذلـك، عـين عبـد الرحمـن بـن محمـد الأشـعث قائـدا عليهـم، فسـار عبـد الرحمـن بهـذا الجيـش الكبـير حتـى قـدم سجسـتان، فجمـع أهلهـا فخطبهـم وقـال:

- أن الحجـاج ولاني ثغركـم، وأمـرني بجهـاد عدوكـم الـذي اسـتباح بلادكـم فإياكـم أن يتخلـف منكـم أحـد فتمسـه العقوبـة، فعسـكروا مـع النـاس وتجهـزوا.

وسـار بـن الأشـعث بجيشـه نحـو بـلاد رتبيـل، فلـما بلـغ هـذا خـبره، أرسـل يعتـذر ويبـذل الخـراج، فلـم يقبـل منـه وسـار إليـه، ودخـل بـلاده وتـرك لـه رتبيـل الأرض بعـد الأرض، والحصـن بعـد الحصـن، وعبـد الرحمـن يحـوي ذلـك، وكلـما حـوى بلـدا بعـث إليـه عامـلا وجعـل معـه أعوانـا وجعـل الأرصـاد عـلى العقـاب والشـعاب، ووضـع المسـالح بـكل مـكان خطـر، حتـى إذا جـاز أرضـا كثـيرة، ومـلأ النـاس أيديهـم مـن الغنائـم، منـع النـاس مـن الوغـول في أرض رتبيـل وقـال:

- نكتفـي بمـا قـد أصبنـاه العـام مـن بلادهـم نجيبهـا ونعرفهـا، ويجترئ المسـلمون عـلى طرقهـا، وفي العـام المقبـل نأخـذ مـا وراءهـا مـن بلادهـم إن شـاء اللـه حتـى نقاتلهـم في آخـر ذلـك عـلى كنوزهـم وزراريهـم، وأقـصى بلادهـم حتـى يهلكهـم اللـه تعـالى. ثـم كتـب إلى الحجـاج بمـا فتـح اللـه عليـه، وبمـا يزيـد أن يفعـل..

فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب إليه: أن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة، ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عددا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم عظيما، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم.

وكتب إليه الحجاج كتابا ثانيا بمثل ذلك، وكتابا ثالثا، يقول له فيه:

- إن مضيت لما أمرتك، وإلا فأخوك اسحق بن محد أمير الناس فدعا عندئذ عبد الرحمن بن الأشعث الناس وقال لهم؟

- أيها الناس إني لكم ناصح ولصلاحكم محب، ولكم في كل ما يحيط به نفعكم ناظر، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضيه ذوو أحلامكم وأولو التجربة منكم، وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج، فأتاني كتابه يعجزني وضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم، وآبي إذا أبيتم.

فثار إليه الناس وقالوا: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع وتكلم بعض ذوي الرأي فقالوا بخلع الحجاج ومبايعة عبد الرحمن ابن الأشعث، ومحاربة الحجاج وإخراجه من العراق، وتبعهم الأمراء وقادة الجند، والناس على اختلافهم، فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبد الملك. بخبر عبد الرحمن، وسأله أن يعجل في بعث الجنود إليه، ونزل الحجاج إلى البصرة، ثم خرج منها إلى (تستر) فالتقت طلائعه بطلائع ابن الأشعث، فانهزم رجال الحجاج أمامهم خبر الهزيمة الحجاج عاد إلى البصرة، وتبعه أصحاب ابن الأشعث فقتلوا منهم وأصابوا بعض أثقالهم، فترك عندئذ الحجاج البصرة فدخلها ابن الأشعث، فبايعها أهلها جميعهم، وكان السبب في سرعة بيعتهم معاملة الحجاج لمن اسلم من أهل الذمة، وتوزعوا في الأمصار، فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها يقول: أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية، فجعلوا يبكون ولا يدرون أين يذهبون، فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج.

الاتفاق مع رتبيل

وإذا فنحن أمام ثورة عراقية ثالثة لعل المسؤول عنها في هذه المرة هو الحجاج نفسه لأن الزحوف والحروب في بلاد بعيدة وأرض صعبة جبيلة، لا يجب أن يقرر أمرها وفاقا لأهواء السياسة وإنما يترك ذلك إلى القائد في ساحة القتال، وقد رأينا كيف أن عبد الرحمن بن الأشعث قائد الجيش رأى عدم الوغول في أرض العدو صيانة لأرواح جنده، وتعويدا لهم على مجابهة الملاحم في هذه الأرض الصعبة البعيدة خصوصا وقد سبق عبد الرحمن بن الأشعث قائد من قواد الحجاج أوغل في أرض العدو فسدوا عليه طريقه، وأحاطوا به من كل جانب، ولم ينج من عدوه إلا بعد صعوبات كثيرة، وخسائر عظيمة في الأرواح والأموال... وكان هذ الفشل حافزا لعبد الرحمن على أن لا يعرض جنده إلى مثل هذا الفشل، ومن ذلك كان تقديره لموقفه وإمعانه في التؤدة إمعانا أنكره الحجاج عليه... وعده مخالفا لرأيه، وخروجا عن طاعته...

ويذكر لنا المؤرخون فيما يذكرون عن ابن الأشعث والحجاج أن ابن الأشعث كان تياها فخورا، وأنه كان يعتقد أبدا أنه فوق كل أمير، ويقول ابن الأثير: أن الحجاج كان يبغضه ويقول لأصحابه:

- ما رأيته قط إلا أردت قتله.

وسمع الشعبي من الحجاج ذلك ذات يوم فأخبر ابن الأشعث به فقال هذا:

- والله لا حاولن أن أزيل الحجاج عن سلطانه.

ولما أراد الحجاج أن يبعثه على ذلك الجيش أتاه أحد أعوانه فقال له:

- لا تبعثه، فوالله ما جاز جسر الفرات، فرأى لو عليه طاعة، وأني أخاف خلافه.

فقال الحجاج: هو أهيب لي من أن يخالف أمري...

وذكر غيره من المؤرخين قصصا أخرى على غرار ما ذكرنا، فإذا كان كل هذا صحيحا، فكيف بعث به الحجاج قائدا للجيش دون غيره من أهل الطاعة؟؟

هذا ما نحار في تعليله إلا أن يكون الحجاج من الإيمان نفسه والاعتداد بسلطانه بحيث ما كان يفطن إلى أن أحدا يستطيع مخالفته فيه...!؟

سنة ٨٢ للهجرة

وتشرف سنة ٨٢ للهجرة والخلاف بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث لا يزال على حاله، وأهل العراق مع ابن الأشعث يحاربون جنود الحجاج من أهل الشام، ويناجزونهم، حتى تمكن جند الحجاج من كسر شوكة العراقيين وهزموهم فانسحبوا نحو الكوفة، وتبعتهم طائفة من أهل البصرة، فلما علم أهل الكوفة بقدوم ابن الأشعث إليهم أخرجوا عامل الحجاج منها واستقبلوا ابن الأشعث استقبالا حافلا...

وهنا يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه من أخبار هذه المعركة، أن الحجاج قتل من أهل العراق أحد عشر ألفا خدعهم بالأمان، وأمر مناديا فنادى لا أمان لفلان بن فلان، فسمى رجالا، فقال العامة:

- قد أمن الناس، فحضروا عنده، فأمر بهم فقتلوا...

دير الجماجم

ولما انتهى الحجاج من أمر الناس في الزاوية والبصرة، مشى إلى الكوفة لقتال ابن الأشعث فنزل (دير قرة)، وترك ابن الأشعث الكوفة فنزل (دير الجماجم)، واجتمع إلى عبد الرحمن أهل الكوفة وأهل البصرة والقراء وأهل الثغور والمسالح، اجتمعوا جميعهم على حرب الحجاج لبغضهم له، وكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم، وجاءت للحجاج الإمدادات من الشام بكثرة عظيمة، وأخذ الناس يقتتلون، وقد خندق كل منهم على نفسه.

ونظر عبد الملك إلى هذه الثورة الجديدة، فخاف منها على ملكه وعرشه فقال: إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج نزعناه، فإن عزله أيسر من حربهم، ونحقن بذلك الدماء.

وبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان، وكان محمد بأرض الموصل، إلى الحجاج في جند كثيف، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج، وأن يجريا عليهم أعطياتهم، كما يجري على أهل الشام، وأن ينزل عبد الرحمن بن الأشعث أي بلد أراد من العراق، فإذا نزله كان واليا عليه ما دام حيا، وعبد الملك خليفة، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك، عزل الحجاج عنها، وصار

محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك، فالحجاج أمير الجماعة، ووالي القتال، ومحمد بن مروان وعبد الله بن الملك في طاعته.

وما كاد الحجاج يعلم بسياسة عبد الملك هذه ورغبته في إنهاء النزاع وقتل الخصومة، حتى اضطرب اضطرابا عظيما وأسقط في يده، ولم يكن أمرا أشد عليه، ولا أوجع لقلبه من ذلك، فخاف أن يقبل أهل العراق عزله، فيعزل عنهم، فكتب إلى عبد الملك يقول:

«والله لو أعطيت أهل العراق نزعي، لم يلبثوا إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر ويبلغك وثوب أهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفان، وسؤاله نزع سعيد بن العاص، فإذا نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه، وأن الحديد بالحديد يفلح.

ومن هذا نرى اختلاف الرجلين في سياستهما، فعبد الملك كان يرغب السياسة الوادعة والاتفاق، والحجاج ينادي بسياسة الشدة والقمع، وحجته ما أورده في كتابه، ولكن عبد الملك أبى إلا أن يعرض عزله على أهل العراق، فلما اجتمع عبد الله ومحمد مع الحجاج، خرج عبد الله بن عبد الملك إلى أهل العراق وناداهم قائلا:

- يا أهل العراق، أنا ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا..

وقال محمد بن مروان:

- أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا، وذكر لهم شروط الصلح والموادعه وحقن الدماء.

فقال أهل العراق: نرجع العشية.

الاجتماع

واجتمع الناس عند عبد الرحمن بن الأشعث فقال لهم:

- قد أعطيتم أمر انتهازكم اليوم إياه فرصة، وأنكم اليوم على النصف، فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم الزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فأقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقضون، فوالله لازلتم عليه جراء وعندهم أعزاء أبدا ما بقيتم إن أنتم قبلتم فوثب الناس من كل جانب فقالوا:

- أن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القوية لا والله لا نقبل. وأعادوا خلعه ثانية.

فقال عندئذ عبد الله بن عبد الملك، ومحمد بن مروان للحجاج:

- شأنك بعسكر وجندك واعمل برأيك فأنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع.

فقال الحجاج: قد قلت لكم أنه لا يراد بهذا الأمر غيركم.

وعاد القتال سيرته الأولى، والقوم يتزاحفون كل يوم ويقتتلون وأهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها، وهم في خصب، وأهل الشام في ضنك شديد قد غلت عليهم الأسعار، وفقد عندهم اللحم كأنهم في الحصار.

ودام القتال بين أهل العراق وجنود الحجاج بالموضع المعروف بدير الجماجم طويلا، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين، فوقعت بينهم أكثر من ثمانين وقاعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث، فهرب إلى البصرة حيث لحقه الحجاج ودارت عدة معاكر بينهما ثم انهزم ابن الأشعث إلى سجستان حيث استقبله رتبيل استقبالا حسنا وأنزله عنده وأكرمه وعظمه، وكان رجال عبد الرحمن وأنصاره من الذين هربوا من وجه الحجاج قد وصلوا في هذا الحين – أواخر سنة٨٣ للهجرة – إلى سجستان، ويقدرهم بعض المؤرخين بستين ألفا وهو عدد نعتقد أنه مبالغ به، وإن كانوا لا يقلون عن بضعة آلاف، وسألوا عبد الرحمن أن يأتيهم، فقدم إليهم، فقالوا له:

- أخرج بنا عن سجستان إلى خراسان.

فقال لهم: إن بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه، ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشام، فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام.

فقالوا: لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا أكثر ممن يقاتلنا.

فرضي عبد الرحمن بما دعوه إليه، ودخل خراسان، فبعث إليه يزيد بن المهلب عامل الحجاج فيها أن يخرج منها وذكر له فيما ذكره من كتابه أنه يكره أن يحاربه ويقاتله، فتردد ابن الأشعث في أمره، ثم أخذ يجبي الخراج فمشى إليه يزيد وحاربه، فلم يكن بينهما كثير قتال، وتفرق أصحاب

عبـد الرحمـن عنـه، وصـبر وصـبرت معـه طائفـة ثـم انهزمـوا، وأسر يزيـد بعضهـم وأنفذهـم إلى الحجـاج بعـد أن اسـتبقى عنـده بعـض مـن كانـوا يمتـون إلى قبيلتـه بحبـال مـن العصبيـة أو النسـب.

موت ابن الأشعث

ومـضى ابـن الأشـعث عـلى وجهـه مـع بقيـة أصحابـه حتـى انتهـى إلى بـلاد رتبيـل ثانيـة، فحـذره أصحابـه مـن رتبيـل هـذه المـرة وقالـوا: قـد يكتـب لـه الحجـاج يرغبـه ويرهبـه فـإذا هـو قـد بعـث بـك إليـه أسـيرا أو قتلـك وأصحابـك، فحمـد رأيهـم ودخلـوا حصنـا تحصنـوا فيـه، وقـدم عليهـم عـماره بـن تميـم في جنـد مـن جنـود الحجـاج فحاصرهـم فامتنعـوا حتـى أمنهـم فخرجـوا إليـه، فـوفى لهـم، وهنـا يختلـف المؤرخـون في مصـير ابـن الأشـعث فبعضهـم يقـول أن رتبيـل قبـض عليهـم وقطـع رأسـه وأرسـله إلى الحجـاج، والبعـض يقـول أنـه أصيـب بسـهم في أثنـاء المعركـة فـمات، فأرسـل رتبيـل إليـه مـن قطـع رأسـه قبـل أن يدفـن، وأرسـله إلى الحجـاج وقيـل أن رتبيـل لمـا اتفـق مع رسـول الحجـاج عـلى تسـليم ابـن الأشـعث إليـه مقابـل إعفـاء الحجـاج رتبيـل مـن الخـراج سـبع سـنوات، وقيـل عـشرا، أرسـل رتبيـل إلى عبـد الرحمـن وثلايـن مـن أهـل بيتـه فحـضروا فقيدهـم وأرسـلهم إلى عـمارة قائـد جنـد الحجـاج، فألقـى عبـد الرحمـن نفسـه مـن سـطح قـصر فـمات فأخـذ رأسـه وسـيره إلى الحجـاج فسـيره إلى عبـد الملـك...